الإيمان بالغيب وثمراته الروحية في ضوء الكتاب والسنة

الدكتور ثائر إبراهيم الشمري

جامعة صنعاء

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

إن الحمد لله ، نحمده و نستعينه ونستهديه و نستغفره ، ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهدِ الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا محمداً عبده ورسوله ، أدى الرسالة وبلغ الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، فصلاة الله وسلامه عليه وعلى آله الأطهار وصحبه الأخيار ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الفصل والقرار ..

أما بعد ...

فبعد أن ضاعف أعداء الإسلام هجماتهم الظالمة الشرسة على ديننا الإسلامي الحنيف ، في مختلف أرجاء المعمورة ، وبمختلف الصور وتنوع الذرائع ، وفي صدارتها التشكيك بعقائد الإسلام العظيم ، وبعد أن رأيت الضعف الإيماني في قلوب كثير من المسلمين ، وخواء تمسكهم ، وهزال موقفهم ، وما نتج عن ذلك كله من ضعف بالشخصية وقلق دائم واكتئاب قاتل وفقدان للأمان وإفقار واضح للطمأنينة و السكينة والراحة ، أقول .. دعاني هذا الجو المؤلم المؤسف إلى التفكير في تقديم علاج كافٍ ودواء – بأذن الله – شافٍ ، له علاقة بالعقيدة ، واتصال بالنفس الكئيبة . شعوراً مني بواجبي اتجاه الإسلام ، وخدمة متواضعة للأنام ، ففتح الله العليم العلام ، بهذا العنوان ، لتدارك النسيان ، : ثمرات الإيمان بالغيب الروحية في ضوء الكتاب .

وقد بذلت فيه كل طاقتي ، وجل وقتي ، ليخرج من غياهب الظلمات ، إلى أنوار العقول والتأملات ، إلى القلوب المريضة ، والنفوس العليلة ، عسى أن يكون سبباً للثبات على الدين : ((وذكر فإنَّ الذكرى تنفع المؤمنين))[1]

وجاء مشروع البحث في خمسة مباحث مترابطات ، وأزهار متناسقات ، وألوان زاهيات ، يفوح منها المسك والعنبر ، وهي بالمنظر الأزهر .

الأول في الرضا ، إذْ نقلت تعريفه اللغوي والاصطلاحي ، ثم بينت أحوال أهل الرضا ثم فضله وعلاقته باليقين وأسبابه .

والثاني في السكينة ، وقمت ببيان معناه اللغوي والاصطلاحي ، ثم عددت درجاتها ، وأوضحت أنها ثمرة عظيمة من ثمرات الإيمان بالغيب .

---

[1] - الذاريات : ٥٥ .

والثالث الطمأنينة ، وذكرت حدها اللغوي والاصطلاحي ، ثم أوضحت الفرق بينها وبين السكينة ، وعددت مراتبها وأنواع القلوب المطمئنة ، وكشفت اللثام عن درجاتها .

والرابع الأمن النفسي ، وما هو في اللغة والاصطلاح ، وما هي أسبابه ، وما هي أنواعه .

والخامس الخاتم ، جاء فيه : الأنس بالله تعالى ، وما عبر عنه في اللغة والاصطلاح ، ثم شروطه وعلامته، ثم درجاته وأحواله ، كل ذلك بعبارات رشيقة ، وألفاظ لطيفة ، ومعانٍ ظريفة ، وكلمات رقيقة .

وجاءت بعدها الخاتمة ، بنتائج وتوصيات هادفة ، تمشي على استحياء ، في أنس خال من الرياء . ثم أردفت ذلك بالمراجع ، والمصادر اللوامع .

وقد كتبت هذا البحث على أرض بغداد الجريحة ، باحتلال أمريكا الخسيسة ، أعاد الله إلي بغداد عزها ومجدها وسلطانها وقوتها ... آمين يا أرحم الراحمين ، وما كان من صواب وحق فمن فضل الله وكرمه ، وما كان فيه من خطأ وتقصير فمن نفسي الأمارة ، وصلى الله وسلم وبارك على حضرة سيدنا محمد وعلى أله الطيبين وصحبه المجاهدين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المبحث الأول : الرضا

يحسن بنا قبل أن نشرع تفصيلات الرضا أن نعرف معناه في اللغة والاصطلاح ، من أجل أن يكون أكثر وضوحاً وبياناً .

والرضا مأخوذ من الفعل الماضي ﷺ فيقال في اللغة : رضيه ، أي : أختاره وقبله . ويقال : رضيه له : رآه أهلاً له . ورضي منه كذا . وفي القرآن الكريم (.. وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) [٢] .

وأرضاه : جعله يرضى ورضاه – بتشديد الضاد – أي : أرضاه [٣].

وأما في الاصطلاح فقد عرف الرضا بعدة تعريفات عدة منها :

١ - الرضا : هو سرور القلب بمر القضاء [٤] .

٢ - وهو رفع الاختيار [٥] .

٣ - وهو سكون القلب بمر القضاء [٦].

٤ - وهو نظر القلب إلى قديم اختيار الله تعالى للعبد [٧].

وعلاقة الرضا بالإيمان بالغيب علاقة قوية جداً ، فالذي يؤمن بالله تعالى عادلاً وكريماً وحكيماً ورحمن ورحيماً ، وانه سبحانه لا يرضى لعبده الكفر والشر والسوء ، ويحب له الإيمان والخير والأحسن والأفضل والأصح ، فالذي يؤمن بكل ذلك أيماناً قوياً يرضى بكل قضاء الله تعالى وقدره ولا يسخط ، لأنه يعلم جيداً أن اختيار الله تعالى له أفضل من اختياره لنفسه ، قال تعالى : {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [٨].

<u>أحوال أهل الرضا :</u>

١ - منهم من عمل في إسقاط الجزع حتى يكون مستوياً لله عز وجل فيما يجري عليه من حكم الله من المكاره والشدائد والراحات والمنع والعطاء .

---

٢ - الذاريات : ٣ .

٣ - القاموس المحيط ، المادة : رضي ، ص١٢٨٨ ، المعجم الوجيز ، مادة : رضي ص٢٦٧ والمعجم الوسيط ٣٥١/١ .

٤ - كتاب التعريفات : ١١١ .

٥ - اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي : ٥٠ والتعرف لمذهب أهل التصوف : ١٠٢ .

٦ - اللمع : ٥٠ .

٧ - المصدر نفسه والرسالة القشيرية : ١٥٣ .

٨ - البقرة : ٢١٦ .

٢- ومنهم من ذهب عن رؤية رضاه عن الله عز وجل برؤية رضا الله تعالى عنه ، لقوله تعالى : (رضي الله عنهم ورضوا عنه)[٩]. فلا يثبت لنفسه قدماً في الرضا وأن استوى عند الشدة والرخاء ، والمنع والعطاء .

٣- ومنهم من تجاوز هذا كله وذهب عن رؤية رضا الله عنه ، ورضاه عن الله لما سبق من الله تعالى لخلقه من الرضا . كما قال أبو سليمان الداراني – رحمه الله - : ليس أعمال الخلق بالذي يرضيه ولا بالذي يسخطه ، ولكنه رضي عن قوم فاستعملهم بعمل أهل الرضا ، وسخط عن قوم فاستعملهم بعمل أهل السخط [١٠] .

والرضا من المقامات الرفيعة للأولياء الصالحين الذين يسقطون التدبير مع الله ، ويسترسلون لحكمه ومشيئته ، وهو من أوضح علامات التقوى والصلاح ، بل هو درجة كبيرة من درجات الولاية الكبرى [١١] .

فضل الرضا وعلاقته باليقين :

إنَّ الرضا عن الله سبحانه وتعالى من أعلى مقامات اليقين بالله عز وجل ، وقد قال تعالى : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)[١٢] . فمن أحسن الرضا عن الله تعالى جازاه الله بالرضا عنه ، فقابل الرضا بالرضا ، وهذا غاية الجزاء ونهاية العطاء ، قال تعالى : (رضي الله عنهم ورضوا عنه) [١٣] .

وقد رفع الله الرضا على جنات عدن، وهي من أعلى الجنات، كما فضل الذكر على الصلاة فقال تعالى :(ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله اكبر)[١٤].كما قال تعالى :(إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر)[١٥].

فالراضون عن الله عز وجل هم الذاكرون بما يحب ويرضى. والرضوان الأكبر جزاء أهل الذكر الأكبر[١٦]. والرضا درجة العارفين[١٧].

---

[٩] - المائدة : ١١٩ .

[١٠] - اللمع : ٥١ .

[١١] - معجم ألفاظ الصوفية : ١٥٣ ، وينظر : نصيحة المزيد : ٣٣٠ .

[١٢] - الرحمن : ٦٠ .

[١٣] - المائدة : ١١٩ .

[١٤] - التوبة : ٧٢ .

[١٥] - العنكبوت : ٤٥ .

[١٦] - قوت القلوب في معاملة المحبوب ٧٦/٢و٧٧ .

[١٧] - طبقات الصوفية للسلمي : ١٠٤ .

أسباب رضا المؤمن عن الله تعالى :

عندما تفكر في سبب حصول الرضا عند المؤمن تجد أسباباً كثيرة ، ولو فكرت مرة أخرى في هذه الأسباب لتجد أكثرها متعلقاً بأشياء غيبية .بدليل أن المؤمن راضٍ عن الله تعالى لأنه آمن بكماله وجماله سبحانه، أيقن بعدله ورحمته ، واطمأن إلى علمه وحكمته ، وانه سبحانه أحاط بكل شي علماً، وأحصى كل شي عدداً ، ووسع كل شيء رحمة لم يخلق شيئاً لهوا ، ولم يترك خلقاً سدىً ، له الملك سبحانه .

لان المؤمن موقن تمام اليقين أن اختيار الله تعالى له احسن من اختياره لنفسه. وان تدبير الله تعالى له افضل من تدبيره لنفسه، وان رحمة الله تعالى به اكبر من رحمة والديه به، وان الخير بيديه ، وان الشر ليس إليه [١٨] ولسان حاله يقول :(بيدك الخير انك على كل شي قدير) [١٩] (وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد)[٢٠].

---

[١٨] - الإيمان والحياة : ١١٠و١١١ .

[١٩] - آل عمران : ٢٦ .

[٢٠] - غافر : ٤٤ .

ولو أعملت فكراً قليلاً في كمال الله تعالى وجماله وعدله ورحمته وعلمه وحكمته وتدبيره لوجدت هذه الأشياء كلَّها غيبية غير مرئية، ولكنك آمنت بها واستدللت على وجودها من آثارها وآياتها.

حكمة لطيفة:

قال العارف بالله ابن عطاء السكندري – رحمه الله -: لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجباً ليأسك، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختار لك، لا فيما تختار لنفسك، وفي الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد. وقال شارحاً ابن عجيبة – رحمه الله -: فإذا تعلق قلبك بحاجة من حوائج الدنيا والآخرة فارجع إلى وعد الله، واقنع بعلم الله، ولا تحرص ففي الحرص تعب ومذلة.

ونقل قول شيخه: الناس تقضى حوائجهم بالحرص فيها والجري عليها، ونحن نقضي حوائجنا بالزهد فيها، والاشتغال بالله تعالى عنها[1].

والحق يقال: ان ما يجري اليوم على أرضنا في فلسطين والعراق وأفغانستان وغيرها من الأراضي الإسلامية والعربية، من أنواع المظالم والجرائم والحروب والقتل والاهانة والتعذيب والسرقة وغيرها لهو اكبر امتحان لنا، وأدق اختبار لإيماننا وإسلامنا وعقيدتنا، أنصبر على بلائه تعالى ونرضى بقضائه فنكون من الفالحين السعداء، أم نسخط على أمره وحكمه فنكون من الخاسرين الأشقياء؟.

ولا يخفى على كل ذي لب وحكمة الفرق بين القضاء الإلهي[2]، والمقتضى البشري، أي: رضانا بقضائه لا يعني رضانا باعتداء المعتدين وظلم الظالمين وقتل المحاربين، إذ نحن أمة خير الأنام ومصباح الظلام سيدنا محمد – عليه الصلاة والسلام – لا نرضى بالذل والمهانة، ولا بالظلم والحقارة.

---

[1] إيقاظ الهمم في شرح الحكم: ٤٠ و ٤١.

[2] ذهب جمهور مشايخ الحنفية إلى أن القدر هو تحديده تعالى أزلاً كل شيء بحده الذي يوجد به من حسن وقبح ونفع وضر، وما يحيط به من زمان ومكان. أما القضاء فهو الفعل مع زيادة إحكام.

وذهب جمهور مشايخ الأشاعرة إلى عكس ذلك تماماً، إلى أن القضاء إرادة الله تعالى الأزلية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص.

أما القدر فهو تعلق تلك الإرادة بالأشياء في أوقاتها المخصوصة.

ينظر: المسائل الخلافية بين الاشاعرة والماتريدية، الأستاذ بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص١٩٨.

المبحث الثاني: السكينة

السكينة بعد حصول الرضا ترتيب حتمي، وهي مأخوذة من الفعل الماضي سكن أي: وقف، فيقال : سكن المتحرك سكوناً أي: وقفت حركته، وسكن المتكلم أي: سكت، وسكنت الريح أي: هدأت، وفلان سكن إلى فلان أي: أستأنس به واستراح إليه[١].

والسكينة: هي الطمأنينة والاستقرار، والرزانة والوقار[٢].

وعرف السيد الشريف الجرجاني – رحمه الله – السكينة بقوله: ما يجده القلب من الطمأنينة عند تنزل الغيب، وهي نور في القلب يسكن إلى شاهده، ويطمئن، وهو مبادئ عين اليقين[٣].

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين. . .﴾[٤] السكينة هي: السكون والطمأنينة، وقال ابن عباس { رضي الله عنهما } : كل سكينة في القرآن هي الطمأنينة إلا التي في البقرة.

درجات السكينة[٥]:

١ - سكينة الخشوع عند القيام بالخدمة، رعاية، وتعظيماً، وحضوراً.

وسبب الخشوع هو الإيمان العميق لقوله تعالى: ﴿ألم يأن للذين امنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾ [٦].

والمقصود بالرعاية هو الاهتمام بحقوق الله تعالى وفرائضه، والمقصود بالتعظيم هو إجلال الله تعالى وإجلال خدمته، وعلى قدر تعظيمك لربك سبحانه، يكون تعظيمك لحقوقه وخدمته.

والمقصود بالحضور هو مشاهدة المعبود سبحانه كأنك تراه.

٢ - السكينة عند المعاملة، بمحاسبة النفس، وملاحظة الخلق، ومراقبة الحق.

فالنفس تزكو وتطهر وتصلح بمعرفة ما لها وما عليها، وبمحاسبتها يطلع الإنسان على عيوبها ونقائصها، وعندئذ يتمكن من إصلاحها.

وأما ملاطفة الخلق فهي معاملتهم بما يحب ان يعاملوه به من اللطف والمودة لا بالعنف والشدة والغلظة، فإن ذلك الخلق السيئ منفر لا مرغب.

---

[١] المعجم الوسيط: ٤٤٠/١ والمعجم الوجيز، مادة: سكن ص٣١٦.
[٢] كتاب العين، مادة سكن، ص٤٣٦. المعجم الوسيط: ٤٤٠/١.
[٣] كتاب التعريفات: ١٢٠.
[٤] الفتح: ٤.
[٥] كتاب منازل السائرين: ٨٤.
[٦] الحديد: ١٦.

ولا تصح المحاسبة ولا الملاطفة إلا بمراقبة الله سبحانه، فهي التي توجب إصلاح النفس واللطف بالخلق.

٣- السكينة التي تنبت الرضا بالمقسوم، وتمنع من الشطح الفاحش، وتوقف صاحبها عند حده من رتبة العبودية[١].

<u>الإيمان بالغيب مصدر السكينة:</u>

سكينة النفس – بلا ريب – هي الينبوع الأول للسعادة، ولكن كيف السبيل إليها إذا كانت شيئاً لا يثمره الذكاء ولا العلم ولا الصحة ولا القوة، ولا المال والغنى، ولا الشهرة والجاه، ولا غير ذلك من النعم المادية؟

إننا نجيب مطمئنين: أن للسكينة مصدراً واحداً لا شريك له، ألا وهو الإيمان بالله تعالى رب العالمين، وباليوم الآخر إيماناً صادقاً عميقاً، إيماناً لا يكدره شك، ولا يفسده نفاق.

ولقد شاهدنا في حياتنا الاجتماعية أكثر الناس قلقاً واضطراباً وضيقاً، وشعوراً بالتفاهة والضياع هم المحرومون من نعمة الإيمان، وبرد اليقين. فتجد حياتهم لا طعم لها ولا مذاق ولا حلاوة، وان تظاهروا باللذائذ والمرفهات والشهوات، لأنهم لا يدركون لها معنى، ولا يعرفون لها هدفاً، ولا يفقهون لها سراً.

ان سكينة النفس ثمرة كبيرة من ثمار دوحة الإيمان بالغيب، وشجرة التوحيد الطيبة، التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وهي نفحة من السماء ينزلها الله تعالى على قلوب المؤمنين من أهل الأرض[٢].

إن عصر المسلمين قد امتلأ بأنواع المعارك الفكرية والثقافية والأخلاقية والإعلامية والحضارية وهو أشد العصور حاجة إلى السكينة الروحية، ليتمكن أبطال المسلمين من صدَّ الغزو الحضاري الكافر، والوقوف في معترك الثقافات الساخر، بقلوب ملئت بالإيمان العميق، وغرس فيها اليقين والتحقيق، فيثمر ذلك كله الرزانة والوقار، والسكينة والاستقرار.

---

[١] مدارج السالكين: ٥٠٩/٢ وما بعدها.

[٢] الإيمان والحياة: ٧٥.

المبحث الثالث: الطمأنينة

بعد السكينة تأتي الطمأنينة، لا العكس، والطمأنينة مأخوذة من الفعل الماضي طمأنه، أي: سكنه وهدأ من روعه. ويقال: فلان اطمأن: سكن وهدأ. والطمأنينة هي الاطمئنان، وهي الثقة وعدم القلق[١].

والطمأنينة في الاصطلاح: هي سكون يقويه أمنٌ صحيح شبيه بالعيان[٢]. وقال ابن القيم – رحمه الله -: الطمأنينة: سكون القلب إلى الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه، ومنه الأثر المعروف (الصدق طمأنينة، والكذب ريبة)، أي: الصدق يطمئن إليه قلب السامع، ويجد عنده سكوناً إليه، والكذب يوجب له اضطراباً وارتياباً[٣].

ومنه قوله – صلى الله عليه واله وسلم – "البر ما سكنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس، ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون"[٤] أي: جعلوا لك رخصة.

وإنما ذكر ﷺ طمأنينة النفس مع القلب إيذاناً بأن الكلام في نفوس ماتت منها الشهوات، وزالت عنها حجب الظلمات[٥].

ويحصل الاطمئنان بذكر الله تعالى لقوله سبحانه: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [٦]. أي: تسكن وتستأنس[٧].

<u>الفرق بين السكينة والطمأنينة:</u>

لعلك بعد ان قرأت السكينة وتعرفت الطمأنينة، تسأل سؤالاً: ما الفرق بينهما؟ فقد يبدو الأمر واحداً. والحق هناك فرقان اثنان:

الأول: السكينة تصول على الهيبة الحاصلة في القلب، فتخمدها في بعض الأحيان، فيسكن القلب من آثارها الهيبة بعض السكون، وذلك في بعض الأوقات دون بعض.

فالسكينة إذن هي استراحة من الهيبة والخوف فقط، أما الطمأنينة فهي استراحة مع زيادة أمن وراحة وأنس أكثر من أنس السكينة.

---

[١] القاموس المحيط، مادة: طمن، ص١٢١٣. المعجم الوجيز، مادة: طمأنة، ص٣٩٥ والمعجم الوسيط ٥٦٧/٢.
[٢] كتاب منازل السائرين: ٨٥ وإنما وصف الأمن بالصحيح تمييزاً عن أمن الغرور الخالي من الاطمئنان والسكون.
[٣] مدارج السالكين: ٥١٢/٢.
[٤] أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي ثعلبة، وقال عنه السيوطي: حديث حسن: الجامع الصغير ٤٩٣/١.
[٥] فيض القدير شرح الجامع الصغير: ٢١٨/٣.
[٦] الرعد: ٢٨
[٧] الجامع لاحكام القرآن: ٢٥٦/٩.

الثاني: السكينة قد تكون مقاماً ونعتاً لا يزول، وقد تحصل في وقت دون آخر. أما الطمأنينة فهي نعت وملكة ومقام لا يفارق صاحبه[1].

مراتب أهل الطمأنينة:

الطمأنينة حال رفيع، ومقام بديع، وهي نعمة عظيمة لعبد رجح عقله، وقوي إيمانه، ورسخ علمه، وصفا ذكره، وثبتت حقيقته. والمطمئنون في هذه النعمة الجسيمة على ثلاث مراتب، وهي:

١- طمأنينة العوام: وهي إذا ذكروه سبحانه اطمأنوا إلى ذكرهم له، فحظهم منه الإجابة للدعوات باتساع الرزق ودفع الآفات، قال تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة﴾[2] أي: بالإيمان بأن لا دافع ولا مانع إلا الله تعالى.

٢- طمأنينة الخصوص: وهي لمن رضوا بقضائه وصبروا على بلائه، وأخلصوا، واتقوا، وسكنوا، واطمأنوا إلى قوله سبحانه: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ [3] وقوله سبحانه: ﴿إن الله مع الصابرين﴾ [4] فاطمأنوا وسكنوا إلى قوله: ﴿مع﴾ فكانت طمأنينتهم ممزوجة برؤية طاعتهم.

٣- طمأنينة خصوص الخصوص: وهي لمن علموا أن سرائرهم لا تقدر أن تطمئن إليه، ولا تسكن معه، هيبة وتعظيماً، لأنه ليس له غاية تدرك، وهو ﴿ليس كمثله شيء﴾[5] و﴿لم يكن له كفواً أحد﴾ [6].

فمن كانت له هذه الأشياء في سره فإلى ماذا يطمئن أو يسكن قلبه؟ ومن وقع في عطش التمني في طلب الزيادة وقع في البحر الذي لا تجري فيه الأوهام[7].

أنواع القلوب المطمئنة:

إن القلوب التي تحاول أن تتعرض للاطمئنان أربعة وهي:

١- قلب قاس: وهو قلب الكافر والمنافق، واطمئنانه بالدنيا وشهواتها، كما قال الله تعالى: ﴿رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها﴾ [8].

---

[1] مدارج السالكين: ٥١٤/٢ و ٥١٥ وقد ذكر الإمام ابن القيم – رحمه الله – فرقين آخرين وأطال في بيان ذلك.
[2] الفجر: ٢٧.
[3] النحل: ١٢٨.
[4] البقرة: ١٥٣.
[5] الشورى: ١١.
[6] الإخلاص: ٤
[7] اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي: ٦٢.
[8] يونس: ٧.

٢- وقلب ناس: وهو قلب المسلم المذنب، واطمئنانه بالتوبة والاستغفار، كما قال الله تعالى: ﴿فنسي ولم نجد له عزما﴾ [١].

٣- قلب مشتاق: وهو قلب المؤمن المطيع، واطمئنانه بذكر الله تعالى، قال تعالى: ﴿الذين امنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [٢].

٤- وقلب وحداني: وهو قلب الأنبياء، وخواص الأولياء، واطمئنانه بالله تعالى وصفاته العلى، كما قال تعالى لخليله سيدنا إبراهيم – عليه السلام – في جواب قوله: ﴿كيف تحيي الموتى؟ قال أولم تؤمن، قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾[٣].

أي: يطمئن قلبي بإراءتك إياي كيفية إحياء الموتى، إذا تتجلى لقلبي بصفة محييك، فأكون بك محي الموتى. ولهذا إذا تجلى الله تعالى لقلب العبد الصالح يطمئن به، فينعكس نور الاطمئنان من مراءة قلبه إلى نسفه، فتصير النفس مطمئنة به أيضاً[٤].

درجات الطمأنينة:

للطمأنينة ثلاث درجات، وهي:

الدرجة الأولى: وهي طمأنينة القلب بذكر الله تعالى. كالخائف إذا طال عليه الخوف، واشتد به، وأراد الله ان يريحه انزل عليه السكينة فاستراح قلبه إلى الرجاء واطمأن به، وسكن لهيب خوفه.

وكالمبتلى أيضاً إذا رأى ثوابه وكرم الله تعالى له، سكن قلبه واطمأن بمشاهدة العوض، حتى يستلذ بالبلاء، ويراه نعمة.

الدرجة الثانية: وهي طمأنينة الروح بكشف الحقيقة. كمعرفة حقائق الإيمان وشرائع الإسلام، ومعرفة الأسماء الحسنى، وأسرار الصفات العليا.

الدرجة الثالثة: وهي طمأنينة شهود حضرة الله بلطف الله. أي: لولا اطمئنان العبد بلطف الله تعالى لمحقه شهود حضرته وأفناه جملة وتفصيلا[٥].

أين هي الطمأنينة:

من يقرأ ما مضى في الطمأنينة تتبادر في ذهنه هذه الأسئلة:

أين نحن من هذه الطمأنينة؟

هل تذوقنا حلاوتها بألسنة قولبنا؟

---

[١] طه: ١١٥.
[٢] الرعد: ٢٨.
[٣] البقرة: ٢٦٠.
[٤] تفسير روح البيان ٣٧٢/٤ و ٣٧٣.
[٥] مدارج السالكين ٥١٦/٢ وما بعدها.

متى نصل إلى هذه الطمأنينة وبهذه الثقافة الراقية؟ وكيف السبيل؟
لماذا لا نتكاشف تقصيرنا الكبير في هذا الميدان مع أنفسنا؟
والى متى .. ثم إلى متى .. ثم إلى متى نقر بتقصيرنا ولا نعالج أمراضنا؟

علينا ان نعلم جيداً ان الأمم الراقية ما ازدهرت، وما نهضت وتقدمت، وما بنت وتطورت، وما أبدعت وأنتجت، وما اخترعت وارتقت، في كل مجالات الحياة العملية والثقافية والاجتماعية والحضارية إلا بعد ان شعرت هذه الأمم بالطمأنينة، شعوراً عميقاً، وأحسته إحساساً حقيقياً لا خيالياً، وهي أمم كافرة، فما بالك لو كانت أمماً مؤمنة، آمنت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبسيدنا وحبيبنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً، وأيدها نور الإيمان، وباركها وحي القرآن، كما كان سابقاً شأن الأمة الإسلامية الواحدة في عصر النور والازدهار إبان الخلافة العباسية.

فحتى يبدع المجتمع الإسلامي وينهض ويزدهر ويرتقي كأسلافه الصالحين، لابد من أن يحيا حياته بحلاوة الطمأنينة، وحتى يتذوق هذه الطمأنينة العالية لابد من أن يجدد إيمانه بالغيب، إيماناً راسخاً.. عميقاً .. حقيقياً .. قوياً لأنه أساس هذه الثمرة الطيبة، وأصل هذه النعمة الربانية.

ونحن نعلم جيداً ضرورة الطمأنينة في كل تفكير يراد منه الإبداع، إذ كل مفكر يحتاج إليها وهو يسوح في عالم الفكر والخيال والتكنولوجيا والتقنية الحديثة.

المبحث الرابع: الأمن النفسي

بعد ان يظفر المؤمن بنعمة السكينة والطمأنينة، يكرمه الله تعالى بنعمة أخرى، هي ثمرة عظيمة من ثمرات الإيمان بالغيب، ألا وهي نعمة الأمن النفسي.

والأمن مأخوذ من الفعل الماضي أمن، أمناً، وأماناً، وأمنة، أي: اطمأن ولم يخف فهو آمن، وأمن من الشر: سلم منه[١].

وأمن فلان فلاناً على كذا: أي: وثق به وأطمأن إليه، أو جعله أميناً عليه[٢]. وفي القرآن الكريم ما يؤيد هذا المعنى: ﴿هل آمنكم عليه إلا كما آمنتكم على أخيه من قبل﴾[٣].

والأمن في الاصطلاح لا يختلف عن معناه اللغوي، فهو: عدم توقع مكروه في الزمان الأتي[٤]. والأمان هو نفس الأمن، وهو ضد الخوف والفزع[٥].

إذا علمنا هذا فانا نقول: إن المؤمن الصادق لا يتحسر على الماضي باكياً حزيناً، ولا يلقى الحاضر جزِعاً ساخطاً، ولا يواجه المستقبل خائفاً وجلاً، وهو لا يستسلم لأوهامه، ولا يضعف أمام تخيلاته، ولا يركع لخوف، ولا يذل من فزع، بل تراه يعيش في بحبوحة من الأمن النفسي، والاستقرار الذهني. وهو مطمئن من الماضي وآمن من الحاضر وواثق بالمستقبل. كل ذلك ببركة إيمانه العميق بالغيب الذي أمرنا الله تعالى بالإيمان به.

<u>أسباب الأمن:</u>

قلنا قبل قليل إن الإيمان بالغيب هو سبب الأمن، بل هو المصدر الأساس في حصول الأمن النفسي، لقوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[٦].

ولكن أيّ إيمان هذا الذي يورث الأمن والأمان والاستقرار والاطمئنان؟ أيعقل انه إيمان الضعفاء الخائفين ... لا ... انه الإيمان الذي يفجر في قلب صاحبه كل طاقات الحمية الإسلامية، ويثور في نفسه كل قوى الغيرة الربانية، ويغلق في باطنه حب الأعمال الخيرية، ويزرع في ذاته الرحمة لكل الإنسانية. إيمان صوام النهار وقوام الليل، إيمان فرسان النهار ورهبان الليل، إيمان الحب والسلام، والشفقة على جميع الأنام، إيمان الشجاعة لا التهور، والعمل لا الثرثرة. إيمان القناعة والرضا، لا السخط على القضا.

---

[١] القاموس المحيط، مادة: أمن، ص١١٧٦. المعجم الوجيز، مادة: أمن، ص٢٥.
[٢] المعجم الوسيط: ٢٨/٢.
[٣] يوسف: ٦٤.
[٤] كتاب التعريفات: ٣٧.
[٥] الموسوعة الفقهية: ٢٧١/٦.
[٦] الأنعام: ٨٢.

هذا هو الإيمان الذي يجلب لصاحبه نور الإيمان وراحة الأمان، ونحن بنا بحاجة ماسة إلى تعرف ثقافة الإيمان، في ضوء السنة والقرآن.

أنواع الأمن النفسي:

بعد التأمل العلمي الطويل في الأمن النفسي ظهر لي أنه على أنواع أربعة، ولكل نوع صور كثيرة، وأشكال عديدة، سنذكر بعضاً منها بايجاز غير مخل، وهي:

١- الأمن في الدنيا: وفيه ما يأتي:

أ – الأمن من الرزق: ومعناه أن المؤمن بالله تعالى إيماناً قوياً لا يخاف على رزقه من النقصان، ولا من الهلاك والفناء، ولا من الفوت والضياع والانقطاع. لماذا؟ لانه يعلم يقيناً أن الرازق هو الله تعلى، وأن المعطي والمانع والواهب والخالق هو الله تعالى، لا البشر.

ولأنه يعلم يقيناً ان الله تعالى وعد بكفالة أرزاق جميع مخلوقاته، وأنه سبحانه لا يخلف الميعاد :﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾[١] ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها، الله يرزقها وإياكم﴾[٢].

سبحانه وعد عباده بانه مسؤول عن كل أرزاقهم، وعد كريم لا يبخل، قدير لا يعجز، حكيم لا يعبث: ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾[٣] ﴿وعد الله، لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[٤].

وبهذه الضمانات يعيش المؤمن حياته آمناً على رزقه، مطمئناً إلى أن الله تعالى لن يهلكه جوعاً، وهو الذي يطعم الطير في الوكنات، والسباع في الفلوات، والأسماك في البحار، والديدان في الصخور[٥].

ب- الأمن من العدو: أي أنه لا يخاف من عدوه مهما تطور عدوه في أسلحته ومعداته، وهذا غير الحذر منه والاستعداد له.

لماذا؟ لانه مؤمن بقول نبيه الكريم – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – لسيدنا عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – (أحفظ الله يحفظك، وإذا سألت فاسأل

---

[١] هود: ٦.
[٢] العنكبوت: ٦٠.
[٣] الكهف: ٩٨.
[٤] الروم: ٦.
[٥] الإيمان والحياة: ١٣١. ولذلك تجد من أخلاق الصالحين عدم اهتمامهم بأمر الرزق، وانشراح صدورهم إذا لم يبت عن احدهم دينار ولا درهم، بل كانوا – لشدة توكلهم على الله وشدة سخائهم – يكرهون ادخار قوت غد. وقيل ذات مرة لابي يزيد البسطامي – رحمه الله – انت من اين تأكل وتشرب؟ فقال: من حيث يرزق الله الذبابة والبعوضة، أفتراه يطعمها وينسى أبا يزيد. تنبيه المغترين: ١٠٧.

الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على ان ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[١].

فعلام يخاف إذن المؤمن؟ والله تعالى إذا كان معه معيناً فلا قوة تؤذيه ولو كانت قوة أهل الأرض جميعاً[٢].

ولماذا يخاف المؤمن وربه يقول: ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير﴾[٣].

ومن يخاف وربه سبحانه يقول: ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وان يردك بخير فلا راد لفضله﴾[٤].

ولكن الإيمان الذي يحفظ صاحبه ويجعله لا يخاف إلا الله تعالى ليس إيماناً سهلاً يمسح وجه القلب فقط، وإنما هو وقود ينزل في سويداء القلب فيشعلها بنور المعرفة والمحبة والذكر، إيمان يتذوق صاحبه حلاوته، ويلمس آثاره، ويتطعم طعمه، وينعم جماله، ويصبح أسيره.

٢- الأمن في النزع:

المقصود بالنزع هو الإشراف على الموت[٥]. والموت صفة وجودية، خلقت ضداً للحياة[٦]. وهو حقيقة واقعة لكل المخلوقات لا محالة. والذي يهمنا هنا هو أن المؤمن عندما يمر في هذا الزمن الحرج، في لحظة وداع للدنيا، واستقبال للبرزخ حيث العالم الفسيح الغريب، تجده لا يخاف ولا يهتز إلا فرحاً وسروراً لماذا؟ لان الملائكة تصحبه وتكون قريبة منه، وتبشره بالجنة كما قال الله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾[٧].

---

[١] رواه الترمذي وقال عنه: حديث حسن صحيح.
[٢] المختار من شرح الاربعين حديث النووية: ٩٨.
[٣] الانعام: ١٧.
[٤] يونس: ١٠٧.
[٥] المعجم الوجيز، مادة: نزع، ص٦١٠.
[٦] كتاب التعريفات: ٢٣٥ وهناك انواع للموت، ومنها: أ- الموت الاحمر: وهو مخالفة النفس. ب- والموت الابيض: وهو الجوع لانه ينور الباطن ويبيض وجه القلب، فمن ماتت بطنته حييت فطنته. ج- والموت الاخضر: وهو لبس المرقع من الخرق الملقاة التي لا قيمة لها، لاخضرار عيشه باقناعة. د- والموت الاسود: وهو احتمال اذى الخلق، وهو الفناء في الله لشهود الاذى منه، برؤية فناء الافعال في فعل محبوبه. ينظر التعريفات: ٢٣٥ و ٢٣٦.
[٧] فصلت: ٣٠

فقد ذهب مجاهد وزيد بن أسلم وغيرهما من أهل التفسير إلى أن الملائكة إنما تتنزل على المؤمنين الصالحين بهذه البشارة العظيمة عند الموت، أي: في حالة النزع[1]. فعلام إذن يخاف وهو ينتظر منذ زمن بعيد هذه البشارة وهذا اللقاء الحبيب.

٣- الأمن في القبر ويوم القيامة:

القبر هو أول منزل من منازل الآخرة، والمؤمن في قبره لا يخاف، لماذا؟ لان أعماله الصالحة تصور له بصورة حسنة نورانية جميلة، فتؤنسه وتفرحه وتسره في قبره وآخرته، كما جاء في الحديث الصحيح ان البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان من طير صواف[2]. وفي قصة القرآن جاء في الصحيح أيضاً أنه يأتي صاحبه في صورة شاب، شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن أ سهرت ليلك، وأظمأت نهارك[3]. ولو أردنا أن نذكر الأدلة الأخرى لسودنا صفحات وصفحات، ولكن اختصرنا وأوجزنا، ومن شاء المزيد فليرجع إلى كتب السنة المباركة. وصدق الله العظيم عندما قال: ﴿إن المتقين في جنات وعيون، ادخلوها بسلام آمنين﴾[4].

أهمية الأمن النفسي في العصر الحديث:

وللأمن النفسي أهمية كبيرة في كل ميادين حياتنا الاجتماعية، وهو سبب الحرية، فالمؤمن عندما ينعم الله تعالى عليه بهذه الثمرة العظيمة ببركة صدق إيمانه يشعر وقتئذ بالحرية: والحرية فرض عين، وعلى الجميع القيام بها، وممارستها، وتحقيقها، وحمايتها من الطغيان الداخلي، ومن العدوان الخارجي.

وإذا غابت الحرية وقع الإثم على الجميع وذلك لسببين:

الأول: ان الحرية سبب رئيس لنمو القدرات العقلية التي يفهم القرآن الكريم بوساطتها، وتفهم آيات الله تعالى في الآفاق والأنفس، فإذا تعطلت هذه القدرات العقلية – بسبب فقدان الحرية – اقتصر الإنسان على تلاوة آيات الله في القرآن وحفظ آيات الله في الآفاق والأنفس دون فهم وتدبر لمقاصدها النهائية.

والثاني: إن غياب الحرية يؤدي إلى ضعف القدرات العقلية وضمورها، مما يمهد لعودة الصنمية والوثنية والتخلف.

---

[1] تفسير الماوردي: ٥٠٣/٣ وتفسير الرازي: ١٢٣/١٤ ومواهب الرحمن: ٤٠/٧.

[2] رواه مسلم في صحيحه في فضائل قراءة القرآن: ٣٣٧/٦.

[3] تفسير ابن كثير: ٢٠٣/٢. واعتماداً على هذه الادلة وغيرها ذهب ابن عباس – رضي الله عنهما – والحسن البصري والسدي وابراهيم النخعي وبعض العلماء إلى ان الأعمال هي التي توضع في كفتي الميزان وتوزن بنفسها: ينظر: الوسيطة في العقيدة الإسلامية: ٢٥٠.

[4] الحجر: ٤٥، ٤٦. والمعنى: ادخلوا أيها المؤمنون الجنة مع السلامة من كل الافات في الحال، ومع القطع ببقاء هذه السلامة، والامن من زوالها. ينظر: تفسير الرازي: ٢٠٢/١٠.

فالحرية هي مظهر التوحيد، والتوحيد في جوهره حرية، لانه تحرر من عبودية الأشخاص والأفكار الخاطئة والخرافية.

والحرية تعني: الاختيار المستنير، العارف، الواعي. أي: هي العمل الذي تتصح منطلقاته وأهدافه، الصادر عن قوة عقلية، ونفس ناضجة متكاملة واعية[1].

وإذا كان وجود الأمن النفسي شرطاً لوجود الحرية، ووجود الحرية شرطاً لاستثمار القدرات العقلية في منافع الناس وإسعادهم وخدمهتم، كان الأمن النفسي شرطاً رئيساً في سعادة المجتمع وراحته وتقدمه ونهضته ورقيه، ولن يتحقق ذلك كله على وجه الكمال إلا في مجتمع قوي الإيمان ... قوي اليقين ... قوي الثقة ... قوي الإرادة والعزم، ولعل الله تعالى يرزق الأمة جيلاً واعياً ... ناضجاً ... حكيماً يرجع بالمجتمع الإسلامي إلى عزه ومجده التليد وليس ذلك على الله ببعيد.

المبحث الخامس: الأنس بالله تعالى

ما اجتمعت الأربعة الماضية (الرضا عن الله، والسكينة، والطمأنينة، والأمن النفسي) في قلب مؤمن إلا وأصابه الانس بالله، بل كان أكثر الناس شعوراً بالسعادة والراحة والسرور.

والأنس من الفعل الماضي أنس – بفتح الهمزة وكسر النون – أنساً وأنسة. وفلان أنس إلى فلان: سكن إليه، وذهبت وحشته. وأنس به: فرح به. وآنسه يؤانسه مؤانسة. أي: لاطفه وأزال وحشته فهو مؤانس[2].

والأنس في الاصطلاح: هو فرح قلب المحب بالمحبوب[3]. فعندما يمتلأ قلبك فرحاً بالله تعالى، وتحسس حلاوة قربه، ويتذوق طعم ذكره وحبه – جل جلاله – يصيبك حال رفيع، وشعور جميل يسمى حال الأنس بالله تعالى – سبحانه وتعالى – . وهذا لا يمكن التعبير عنه بكلمات، ولا الإشارة إليه بحروف لماذا؟ لأنه أرقى من الكلمات، وأسمى من الحروف.

وقد عبر الصالحون عن معنى الأنس، كل بحسب ذوقه وكشفه وتجربته فقال أحدهم: الأنس: هو أن تستوحش مما سوى محبوبك[4].

ولما سئل الجنيد البغدادي – رحمه الله – عن الانس قال: ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة. أي: أن يكون الرجاء أغلب من الخوف[1].

---

[1] مقومات الشخصية المسلمة، للدكتور ماجد عرسان الكيلاني، ط٢، سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، مؤسسة الريان، بيروت – لبنان، ص٤٦.

[2] القاموس المحيط، مادة: أنس، ص٥٣١. المعجم الوجيز، مادة: أنس، ص٢٧.

[3] التعرف: ١٠٦.

[4] طبقات الصوفية للسلمي: ١٨٤.

ولما سئل ذو النون عنه أيضاً، قال: - الأنس – هو انبساط المحب إلى المحبوب[٢].

شروط الأنس وعلاماته:

إن أجواءً روحانية عالية وراقية بهذا المستوى الفائق السامق لا يمكن أن تحصل بواسطة طاعة اعتيادية، أو شروط سهلة، أو خصال حميدة يسيرة، بل لابد من جهاد كبير متواصل، وجد ومثابرة دئوبة، وتزكية روحية مستمرة، ورغبة قوية صادقة في الوصول إليها.

مع مراقبة دقيقة لأحوال النفس وشهواتها، ومتابعة مستديمة لأنوار القلب، زيادته ونقصانه، رقته وقسوته، صحته ومرضه، نشاطه وكسله، صفائه وطهارته. وملاحظة لحظات الذكر الحضوري الحقيقي، وساعات الغفلة الطويلة.

كل ذلك تحت يد حنينة روحانية، يد مرشد ... مُربٍ، وهب القدرة على التزكية، والتربية، والتصفية، والتحلية، والتنقية، والتذكرة.

ولذلك يقول الإمام الطوسي (ت – ٣٧٨هـ) – رحمه الله – والأنس بالله لعبد قد كملت طهارته، وصفا ذكره، واستوحش من كل ما يشغله عن الله تعالى، فعند ذلك آنسه الله تعالى به[٣].

وقال الإمام ابن القيم – رحمه الله -: الأنس ثمرة الطاعة والمحبة، فكل مطيع مستأنس، وكل عاص مستوحش، كما قيل:

فان كانت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس[٤]. فمن أراد الفوز بهذا الحال العجيب، حال الأنس بالله تعالى ذكراً أو حضوراً أو مشاهدةً أو مناجاة فليتقيد باتباع النبي الكريم ﷺ فهو سر الوصول، ومنه باب القبول. ولذلك قالوا:

من تأدب بآداب الصالحين فانه يصلح لبساط الكرامة ، ومن تأدب بآداب الأولياء فانه يصلح لبساط القربة ، ومن تأدب بآداب الصديقين فإنه يصلح لبساط المشاهدة ، ومن تأدب بآداب الأنبياء فانه يصلح لبساط الأنس والانبساط[٥].

ويجمع مع الاتباع الدقيق صفاء الذكر والاطمئنان فيه ليجني معرفته تعالى والانس بها. لذلك قال أحد العلماء الربانيين في قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[١]. إن القلوب هشت، وبشت، وسكنت واستأنست.

---

[١] التعرف: ١٠٦.
[٢] المصدر نفسه.
[٣] اللمع: ٦٠.
[٤] مدارج السالكين: ٢/ ٤٠٦.
[٥] طبقات الصوفية: ٢٧٠.
[١] الرعد: ٢٨.

هشت من معرفة جلال الله تعالى وعظمته ، وبشت من معرفة رحمة الله تعالى وفضله ، وسكنت من معرفة كفاية الله تعالى وصدقه ، واستأنست من معرفة إحسان الله تعالى ولطفه[٢] .

والعبد الذي يستأنس بالله تعالى دوماً يستأنس به كل الخلق، لانه أصبح قريباً منه تعالى، والقريب من المحبوب محبوب. فيستأنس به الشجر والصخر، والقطر والمطر، والبيت والحديد، والخشب والجليد، والإنسان والحيوان، والملك والجان.

قال الإمام سهل التستري – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾[٣]: إذا سكن قلب العبد إلى مولاه واطمأن إليه، قويت حال العبد فإذا قويت أنس بالعبد كل شيء[٤].

وأما علامة الأنس بحضرته سبحانه فهو: ضيق في الصدر من معاشرة الخلق، والتبرم، وعدم الإحساس بعذوبة الذكر في مجلسهم – إذا كانوا من الغافلين – وإذا اجتمع الانس بالناس فهو وحيد مع الجماعة، وجالس بينهم في وحدة، كأنه غريب في مدينة، وحاضر في سفر، وشاهد في غيبة، وغائب في حضور، يخالط الناس بالبدن لكنه منفرد – عنهم – بنفسه وبقلبه، مستغرق في عذوبة الذكر[٥].

ويروى عن حضرة أمير المؤمنين سيدنا الإمام علي – عليه السلام والرضوان – أنه وصف أهل الأنس به، فقال في حقهم قولاً عجيباً: هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما أستوعره المترفون ، وآنسوا بما أستوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدانهم ، وأرواحهم معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه[٦].

وإذا غلب حال الأنس الصادق في مودته، وتمكن منه، لا تكون لهذا الصادق رغبة في دنيا ولا مال ولا زوجة ولا ولد ولا جاه ولا طعام ولا شراب ولا لباس، بل يميل إلى العزلة والوحدة، والانفراد والخلوة، حيث الحبيب مع حبيبه، والخالق مع مخلوقه، بصفاء ونقاء، وطهر وضياء، حيث الراحة والسرور، والفرح والنور.

<u>درجات الأنس:</u>

قسم الإمام الهروي – رحمه الله تعالى – الأنس في كتابه منازل السائرين، إلى ثلاث درجات، وهي:

<u>الدرجة الأولى:</u> الأنس بالشواهد، وهو:

---

[٢] اللمع: ٦١.
[٣] البقرة: ٢٦٠.
[٤] اللمع: ٦١.
[٥] معجم الفاظ الصوفية: ٦٢.
[٦] اللمع للطوسي:

١ - استحلاء الذكر.

٢ - والتغذي بالسماع.

٣ - والوقوف على الإشارات.

والدرجة الثانية: الأنس بنور الكشف، وهو أنسٌ شاخص عن الانس الأول، تشوبه صولة البهمان، ويضربه موج الفناء، وهذا الذي غلب قوماً على عقولهم، وسلباً قوماً طاقة الاصطبار، وحلَّ عنهم قيود العلم.

وفي هذا ورد الخبر بهذا الدعاء: أسألك شوقاً إلى لقائك من غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة.

والدرجة الثالثة: أنس اضمحلال في شهود الحضرة.

لا يعبر عن عينه ولا يشار إلى حده ولا يوقف على كنهه[١] اللهم اجعلنا من أهله .

أحوال أهل الأنس:

لم يكن المستأنسون بالله تعالى على حال واحد جميعهم، بل هم على ثلاثة أحوال:

الحال الأول: من أنس بالذكر واستوحش من الغفلة، وأنس بالطاعة واستوحش من المعصية.

وهنا قال الإمام سهل بن عبد الله – رحمه الله -: أول الأنس من العبد أن تأنس النفس والجوارح بالعقل ، ويأنس العقل والنفس بعلم الشرع ، ويأنس العقل والنفس والجوارح بالعمل لله خالصاً ، فيأنس العبد بالله تعالى، أي: يسكن إليه.

والحال الثاني: الأنس بالله تعالى والاستيحاش مما سواه.

وعلامة هذا الحال كما قال ذو النون – رحمه الله - : إذا رأيته يؤنسك بخلقه فانه هو ذا يوحشك من نفسه، وإذا رأيته يوحشك من خلقه فهو ذا يؤنسك بنفسه.

والحال الثالث: الذهاب عن رؤية الأنس بوجود الهيبة والقرب والتعظيم مع الأنس.

ومعنى هذا الحال هو أن الله تعالى أكرم بعض عباده بأن رزقهم من الهيبة له سبحانه ما أخذهم وأشغلهم عن الانس بغيره.

وسئل الشيخ الشبلي – رحمه الله – عن الأنس، فقال: وحشتك منك، ومن نفسك، ومن الكون[١].

أقوال في الأنس نفيسة:

١ - قال ذو النون المصري: أدنى منازل الأنس أن يُلقى – العبد – في النار فلا يغيب همه عن مأموله[٢].

---

[١] كتاب منازل السائرين: ٦٩ – ٧٠.

[١] اللمع: ٦٠ – ٦١ ومعجم ألفاظ الصوفية: ٦١.

[٢] طبقات الصوفية: ٢٣.

٢- وقال إبراهيم بن أدهم: لا تطمع في الأنس بالله مع الأنس بالمخلوقين[٣].

٣- وقال السري السقطي: أربعة أشياء لا يسكن في القلب معها غيرها:

١/ الخوف من الله وحده .

٢/ الرجاء لله وحده .

٣/ الحب لله وحده .

٤/ الأنس بالله وحده.[٤]

٤- وقال علي بن سهل الاصفهاني:

الغافلون يعيشون في حلم الله ، والذاكرون يعيشون في رحمة الله ، والعارفون يعيشون في لطف الله ، والصادقون يعيشون في قرب الله ، والمحبون يعيشون في الأنس بالله والشوق إليه.[٥]

٥- وقال أبو العباس بن عطاء الادمي:

من تأدب بآداب الصالحين فإنه يصلح لبساط الكرامة ، ومن تأدب بآداب الأولياء فإنه يصلح لبساط القربة ، ومن تأدب بآداب الصديقين فإنه يصلح لبساط المشاهدة ، ومن تأدب بآداب الأنبياء فإنه يصلح لبساط الأنس والانبساط.[٦]

٦- وقال الجنيد البغدادي في الانس بالله: ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة.[٧]

إن أنساً بهذه الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة لن يحصل عليه مؤمن إلا إذا هذب شهوات نفسه تهذيباً دقيقاً، مستمراً طويلاً وببركة أنظار عالم رباني، وبعناية مرشد روحاني، سبقه في طريق التهذيب والتزكية، والتصفية والتربية، حتى نقي وصفا، وسما وارتقى، فكشف له عن هذا الكرم الكبير، والخير الكثير، بإيمان راسخ متين، ويقين ثابت ... صلب لا يلين. جعلني الله وإياك من الفائزين ببساط الأنس، المقربين من حضرة القدس، انه ولي ذلك والقادر عليه آمين.

---

[٣] المصدر نفسه: ٣٥.

[٤] المصدر نفسه: ٥٤.

[٥] طبقات الصوفية: ٢٣٤.

[٦] طبقات الصوفية: ٢٧٠.

[٧] اللمع للطوسي: ٦١.

الخاتمـــــــة

بعد هذه الجولة الطيبة في دوحة الإيمان وثمراته المباركة نسجل أهـم النتـائج التـي لاحت لنا، والوصايا التي ظهرت أمامنا، وهي:

١- ظهر لنا أن في الإيمان بالغيب ثمرات مادية وثمرات روحية، ولكل من القسـمين أمثلـة عديدة، ونماذج تطبيقية كثيرة.

٢- ثمرات الإيمان كالرضا والطمأنينة أوضح علامة، وأقوى برهان علـى وجـود التقـوى والصلاح في قلب صاحبها، وأنه حقاً ولي من أولياء الله الصالحين.

٣- تقوم ثمرات الإيمان بدور كبير في صياغة الشخصية الإسلامية للإنسان المؤمن. فالمؤمن الذي يتمتع بثمرة السكينة مثلاً تراه قوياً في موقفه، هادئاً في إصداره كل قراراته، صـلباً بوجه عدوه، ملاحظاً دقيقاً لتغيرات مجتمعه، ومراقباً شديداً لتصرفاته وأفعالـه. ذاك لأن السكينة معناها الرزانة والاستقرار والوقار. وكفى بذلك هيبة وإجلالاً.

٤- وبان لنا أن الذي يتمتعون بثمرات الإيمان هم أكثر الناس شـعوراً بالراحـة والسـعادة والسرور، وهم أكثر الناس تذوقاً لطعم الحياة. بينما نجد المحرومين من هـذه الثمـرات أكثر الناس قلقاً وخوفاً واضطراباً وغماً وهماً، لأنهم لم يتذوقوا نعمة الإيمان وحرموا من برد اليقين. وهؤلاء لا تغنيهم أموالهم ولا جاههم ولا أولادهم ولا شهواتهم عن أي ثمـرة من ثمرات الإيمان، مهما أوتوا من الدنيا الفانية.

٥- وتبين لنا ان المؤمنين أنفسهم يتباين تذوقهم لثمرات الإيمان، وأنهـم وان اشـتركوا فـي المؤمن به – اسم مفعول – بيد أنهم ليسوا جميعاً في درجة واحدة مـن الشـعور بهـذه الثمرات، كل بحسب قوة إيمانه، ودرجة تمسكه بشريعة ربه سبحانه. ومـن هنـا نجـد السبب في اختلاف أهل الطمأنينة مثلاً على ثلاث درجات: طمأنينة العـوام، وطمأنينـة الخصوص، وطمأنينة خصوص الخصوص. وكذا الحال في درجات السكينة.

٦- إن كثرة وقوع القتل والسرقة في المجتمع، وكل الجرائم الأخرى تعود إلى قلة الإيمان في قلوب أبناء ذلك المجتمع، وما يعقب هذه الجرائم من فقدان للأمن، وخوف من المسـتقبل، وفزع من الحاضر. في حين نجد الأمن النفسي ظاهرة شائعة، وخيمة عامـة فـي كـل مجتمع تحلى أبناؤه بقوة الإيمان، والتمسك بهدي خير الأنام سيدنا محمد ﷺ .

٧- أرى من الضروري جداً، ومن الأهمية بمكان أن يتدارك المسلمون اليوم أنفسـهم وهـم يعانون ظاهرة الخواء الإيماني، والضعف اليقيني. فانه السبب الرئيس في هبـوطهم مـن علياء حضارتهم، ورجوعهم بعد تقدمهم، وضعفهم بعد قـوتهم، وذلهـم بعـد عـزمهم، وهوانهم بعد هيبتهم، وجهلهم بعد علمهم.

٨- وأرى أيضاً أن يشخصوا وسائل الارتقاء بإيمانهم، وعوامل النهوض للزيادة في يقينهم، وأرى في صدارتها الانضواء في عمل روح إسلامي، يحفه سياج الشريعة الغراء، على نهج سلفنا الصالح بالسند المتصل إلى حضرة خاتم الأنبياء والمرسلين مولانا حضرة محمد ﷺ وإن في هذه التذكرة ﴿لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

المصادر

١- طبقات الصوفية، لأبي عبد الرحمن السلمي، ٤١٢هـ، تحقيق نور الدين شريبه، ط٣، الناشر مكتبة الخانجي – القاهرة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

٢- معجم ألفاظ الصوفية، د. حسن الشرقاوي، ط١، ١٩٨٧، مؤسسة مختار. القاهرة .

٣- التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر محمد الكلابادي – هـ(٣٨٠هـ - ٩٩٠م). تحقيق. د. عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور، طُبعَ بدار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الجلبي وشركاءه – القاهرة (١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م) .

٤- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، للإمام ابن قيم الجوزية، دار الفكر، هـ (٦٩١ – ٧٥١) تحقيق عمد حامد الفقي. ط الأخيرة (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) .

٥- اللُّمعُ في تاريخ التصوف الإسلامي. أبي نصر عبد الله بن علي السراج الطوسيّ. هـ (٣٧٨هـ)، ضبطهُ وصحّحهُ (كامل مصطفى الهنداوي)، دار الكتب العلمية منشورات محمد علي بيضون لنشر الكتب لأهل السنة والجماعة .

٦- المعجم الوجيز، د. إبراهيم مدكور، ط شركة الإعلانات الشرقية – دار التحرير – مصر العربية .

٧- الإيمان والحياة – يوسف القرضاوي. ط١٩ (١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م). مؤسسة الرسالة ناتيرون .

٨- قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، للشيخ أبي طالب المكي، تحقيق سعيد نسيب مكارم، ط الأولى ١٩٩٥م. دار صادر للطباعة والنشر (بيروت – لبنان) .

٩- كتاب التعريفات، الشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٣ (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) .

١٠-نصيحة المريد في طريق أهل السلوك والتجريد ويسمى أيضاً اليواقيت الحسان في تصريف معاني الإنسان، علي بن عيد الرحمن بن محمد العمراني المعروف بالجمل هـ (١١٩٣هـ) – تحقيق د. عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية (بيروت – لبنان)، ط الأولى (٢٠٠٥م – ١٤٢٦هـ) .

١١-فيض القدير شرح الجامع الصغير – للعلامة المناوي (محمد المدعو بعبد الرؤف المناوي، ط٢، دار المعرفة (بيروت – لبنان). (١٣٩١هـ - ١٩٧٢م) .

١٢-الموسوعة الفقهية – اصدار وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية – الكويت، ط الأولى (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) .
١٣-المختار من شروح الاربعين حديث النووية – عبد الخالق مسعود – جنيكوم للطباعة والنشر (بيروت – لبنان) – رقم الايداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية (١٩٨٣/٤/١٢٥٥) .
١٤-الجامع الصغير في أحاديث البشير – جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي دار الفكر (بيروت – لبنان) هـ (٨٤٩ – ٩١١هـ) .
١٥-النكتُ والعُيُون تفسير الماوردي – أبي الحسن علي بن حبيب الماوردي البصري هـ (٣٦٤ – ٤٥٠هـ) حققهُ (خضر محمد خضر) (راجعهُ (د. عيد الستار أبو غدة)، ط١١) نشر وزارة الأوقاف والشئون الدينية الإسلامية التراث الإسلامي – ١٣ – الكويت (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) .
١٦-مواهب الرحمن في تفسير القرآن – عبد الكريم محمد المدرس – عُني بنشرهِ محمد علي القره داغي – ط الثانية. دار الحرية للطباعة – بغداد (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م) رقم الايداع في دار الكتب والوثائق (١١٢) لسنة ١٩٩٠م.
١٧-تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب – محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عُمر المشتهر بخطيب الريّ نفع الله به المسلمين هـ (٥٤٤ – ٦٠٤هـ). دار الفكر للطباعة والنشر (بيروت – لبنان)، (١٤١٥هـ - ١٩٩٥) .
١٨-الجامع لاحكام القرآن تفسير القُرطبي – لابي عبد الله محمد بن احمد الانصاري القُرطبي – تحقيق وخرّج أحاديثهُ (عماد زكي البارودي – خيري سعيد المكتبة التوفيقية) .
١٩-تفسير روح البيان – للامام الشيخ اسماعيل حقي البروسوي هـ (١١٣٧هـ) دار الفكر – (بيروت – لبنان).
٢٠-شرح الجامع – الملا عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الملقب بنور الدين المتوفي ٨٩٨هـ خصوص الحكم للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي – دار الكتب العلمية، ط الأولى (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م).
٢١-المعجم الوسيط – د. ابراهيم انيس د. عبد الحليم منتصر د. عطية القوالي د. محمد خلف الله احمد – امواج (بيروت – لبنان) (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
٢٢-الوسطية في العقيدة الإسلامية – د. ثائر إبراهيم الشمري – منشورات محمد علي بيضون – دار الكتب العلمية (لبنان – بيروت) ط الأولى (١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م) .

٢٣-تنبيه المغتربين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر أبى المواهب عبد الوهاب بن احمد بن علي الشافعي المصري المعروف بالشعراني ت (٩٧٣هـ) وضح حواشيه الشيخ عبد الوارث محمد علي منشورات علي بيضون (بيروت – لبنان) ط(١) (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
٢٤-كتاب منازل السائرين – لشيخ الإسلام عبد الله الأنصاري الهروي (٣٩٦ – ٤٨١هـ) (١٠٠٦ – ١٠٨٩م) – دار الكتب العلمية (لبنان – بيروت).
٢٥-إيقاظ الهمم في شرح الحكم – العارف بالله (احمد بن محمد بن عجيبة الحسني) تقديم ومراجعة (محمد احمد حسب الله) – دار المعارف – مصر.
٢٦-الرسالة القشيرية في علم التصوف – للامام العالم ابي القاسم القُشيري. دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع. وعليه هوامش من شرح شيخ الإسلام زكريا الانصاري (رحمه الله تعالى) – مطبعة مُنير.
٢٧-القاموس المحيط، للعلامة مجد الدين محمد يعقوب الفيروز ابادي (ت – ٧١٨هـ) مؤسسة الرسالة، ط٧، سنة٢٠٠٣م.
٢٨-كتاب العين، للعلامة ابي عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي (ت – ١٧٥هـ) دار إحياء التراث العربي، (بيروت – لبنان).
٢٩-صحيح مسلم، للإمام مسلم بن حجاج القشيري، دار القلم (بيروت – لبنان)، تحقيق الشيخ خليل الميس.
٣٠-مقومات الشخصية المسلمة – أو – الانسان الصالح، للدكتور ماجد عرسان الكيلاني، ط٢، سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، مؤسسة الريان، (بيروت – لبنان).
٣١-المسائل الخلافية بين الاشاعرة والماتريدية، الاستاذ بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، ط١، سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.